الفصل الثانى

الرمزية ودلالاتها النفسية

مقدمة : الملاحظ لفنون الأطفال . والفنون التشكيلية للجنس البشرى عامة . يشاهد أنواعاً من الرموز فى طيات التعبير الفنى ، سواء كان هذا التعبير رسماً . أو نحتاً . أو تصويراً لخطوط . أو زخرفة لآنية ، بمختلف الخامات . وتلك الرموز لها معان مختلفة ودلائل ، يمكن بالنظر إليها . فهم كثير من المعانى التى يحاول المعبر أن ينقلها إلى المشاهدين . على أن التعبير الفردى الذى يقوم به الطفل . ترتبط رموزه بفرديته . بينما الرموز التى استخدمت فى الفنون القديمة . لها دلائل اصطلاحية . أى أنها ترتقى فى كثير من الأحيان إلى مستوى اللغة العامة ، والتى تنم عن معان متعارف عليها .

وقد حاول علماء النفس التحليليون أن يربطوا بين الرمزية والشخصية ، حيث إن الرموز التى يعبر عنها الأطفال . كثيراً ما تعكس فى مجموعها بعض المعانى الدفينة فى اللاشعور . وقد تزداد الرموز وضوحاً مع بعض الأطفال الذين يعانون أمراضاً نفسية . فهم لاينتجون رسوماً كالتى يصنعها الطفل العادى ، فما يعانونه من أزمات نفسية إنما يضغط بصورة ملحة ليفصح عن كيانه منعكساً فى الرسم بصورة أو بأخرى ، وعلى ذلك يصبح الرسم مفتاحاً لفهم تلك المعانى الدفينة التى تؤثر فى الشخصية .

أما بالنسبة للفنون القديمة . فقد ترتقى الرموز إلى ما يشغل الجماعة ،

فالرمز مصطلح . ومجموع المعانى الرمزية يشكل اللغة النهائية التى يمكن بقراءتها فهم دلائل كثيرة . أكثر من مجرد الاستمتاع برؤية الصورة من زاويتها الجمالية وحدها.

الرمزية واللاشعور : وقد حاول يونج . وغيره من علماء التحليل النفسى ، أن يربطوا بين الرموز التى تشاهد فى الفنون. والمعانى التى تستتر عادة فى اللاشعور . وترتبط ببعض الدوافع النفسية الخفية التى لم تجد سبيلا للتحقيق . حيث يضع المجتمع سياجاً خارجيًا يمنع هذا التحقيق . كما أن مثل تلك الدوافع قد ترتبط باتجاهات شرطية مصحوبة بالخجل ، مما يعرقل أيضاً تحقيق هذه الدوافع .

ولقد أوضح يونج عديداً من الصور التى تتضمن هذه الرمزية فى كتابه المعروف : « الإنسان ورموزه »[1] ، وفيما يلى إيضاح لبعض تلك الصور :

المنظر الأول : ويوضح صورة لانقسام الشخصية ، تمثل الرواية المشهورة : « دكتور جيكل ومستر هايد » . والتى كتبها ستيفنسن ، أوخرجت بالسينما . ويظهر فى الصورة شكل (١)هايد الذى يبدو أقرب إلى الغوريللا ، والذى يمثل النصف الثانى من شخصية دكتور جيكل ، وهو دلالة عامة فى اللاشعور ورثته الإنسانية جمعاء ، كما يرى ذلك يونج . فالنصف الذى لايظهر للمجتمع ، يكون مليئاً بالشك ، والحقد ، وليس فيه منطق اجتماعى ، وصورة هايد فى الحقيقة رمز لهذا النصف الثانى المختبئ فى اللاشعور ، أى رمز للشر ، بل هى الصورة الواضحة

---

(١) المرجع السابق .

لما يختبىء فى اللاشعور . وليس من اليسير إدراك هذا الجانب من الناحية المعنوية . إلا إذا أعطى دلالة ملموسة . فصورة الغوريلا التى تقرب فى شكلها العام من طبيعة شكل الإنسان . أقرب أيضاً للجوانب الفردية غير المهذبة التى تختفى فى اللاشعور . وفى قصص الأطفال . تصور الغوريلا على أنها « الغول » رمز كل أنواع الشر الذى يفتك بالبشر . وحينما يحاول الإنسان أن يبرز جوانبه الغريزية . فليس أدل على الإفصاح عنها من تصور شكل هذا الغول . شكل (١).

المنظر الثانى : ويمثل بقعة من الحبر سطر بطريق الصدفة على قطعة من الورق . ثم تثنى هذه الورقة من المنتصف فتظهر البقعة بشكل متماثل فى الصفحة . وحينما تعرض هذه البقعة على المشاهدين . فإنهم عادة يتصورون فيها أفكاراً . ومعانى . ورموزاً . هى مجمل ما يستعينونه على هذه البقعة . فالبقع فى الحقيقة تستخدم كمثيرات لدلالات إسقاطية . وترابطات شخصية حرة . وفى الواقع إن أى شكل غير منتظم . قد يكتسب معنى بالنسبة للمشاهد من العملية الترابطية . وقد كتب ليوناردو دافنشى فى مذكراته : « ليس من العسير على الشخص أن يقف وينظر فى قوائم الجدران . أو فى حطام النار . أو فى السحب . أو الطين . أو الأماكن المشابهة . ويجد فيها أفكاراً جيدة[1] » شكل (٢).

المنظر الثالث : ويتضمن نوعاً من الرمزية التى تعبر عن العملية الجنسية ، مرموزة لها فى صيد الغزال . والصورة توضح أحد أعمال الفنان الألمانى « كراناتس » . وتبدو فكرة الجنس فى قصيدة شاعرية تمثل

(١) المرجع السابق ص ١٠ .

عملية الصيد مرموز لها فى مقاطع مختلفة . فأول طلقة لم يصب فيها الصائد هدفه ، وفى الطلقة الثانية التى أصابت ، قام بتقبيل صيده . أما الثالثة فهربت ولاذت بالفرار إلى قلب رجل شاب ، وهى تعيش بين الأوراق الخضراء .

ولعل فى فكرة الغزال . تصويراً للأنوثة . وعملية الصيد فى ذاتها عبارة عن بحث الجنس الخشن عن الجنس اللطيف ، وما أجمل شكل الغزال حينما نقارن بينه وبين المرأة الجميلة ، حتى فى اللغة العادية . شكل (٣).

المنظر الرابع : يمثل مفتاحاً فى ثقب الباب وهو رمز آخر للجنس . والصورة ترجع إلى القرن الخامس عشر للفنان كامبين[1]. والباب قصد به أن يرمز إلى الأمل . والقفل يمثل نوعاً من المشاركة . أما المفتاح فيرمز إلى رغبة الإنسان إلى التقرب نحو الله . والناظر إلى الصورة لا يشاهد هذه المعانى لأول وهلة . ولكن بعمليات تأملية قد تتضح . فنحن نتحدث فى لغتنا العادية عن الباب المفتوح . وهى فكرة رمزية . على أن الأمل لم يقطع ولم يوصد ، وسياسة الباب المفتوح معناها أن عملية الأخذ والعطاء تعطى أملا فى تفاهم أكبر . أما إغلاق الباب وإيصاده، فهى دلائل رمزية لفقدان الأمل . شكل (٤) .

المنظر الخامس : ويرمز للفكرة التى يؤكدها « يونج » فى كتاباته . من كون الرجل ليس رجلاً مطلقاً، أو الأنثى أنثى مطلقة، فكلاهما من الجنس

(١) Campin

الآخر صورة مصاحبة منذ البداية . يحمل الرجل الأنيما[١]، أى صورة العنصر النسائى فى لاشعوره، كما تحمل المرأة الأنيماس[٢]، وهى صورة العنصر الرجالى فى لاشعورها ؛ ويبين هذا نوعاً من الازدواج الداخلى . والصورة رمز لهذا الازدواج ، فنصفها امرأة . والنصف الآخر رجل يحمل سيفاً . والأذرع يعلوها جناحان على شكل وطواط . بينما الأرجل تستند إلى وحش خرافى . والصورة من مخطوطات كيميائية فى القرن السابع عشر . شكل (٥) .

المنظر السادس: ويمثل حالة من الهيستيريا الجماعية المتطرفة التى كان يطلق عليها فى الماضى : « التملك »[٣]. فإن العقل الواعى وعملية الإدراك ، كلاهما يختل . وتسبب نوبة رقصة السيف الباليزيه للراقصين . حالة من الغثيان قد يصلون فيها إلى نوع من الهياج يستخدمون فيها أسلحتهم ضد أنفسهم . وتستثير لنا هذه الصورة . بعض الرقصات المحلية التى يعلو فيها الصراخ . وتزداد حدة الطبول برغم إخراج العفاريت التى تأخذ مكانها من نفسية المريض . ولعل الزار أحد مظاهر الرقص الانفعالى المحلى ، الذى يبرز هذه السمة . شكل (٧) .

المنظر السابع : والصورة تمثل لعبة العربات « الفولكس فاجن » التى تمثل شعاراً للإعلان عن الماركة فى هذه الصورة . وقد يكون لهذه اللعبة تأثيرها فى عقلية المشاهد ، حيث يمكن أن تستثير لديه ذكريات الطفولة ،

---

(١) anima (٢) animus

(٣) possession

إذ يلذ لكل طفل أن يرتب أشكال العربات فى تشكيلات جميلة ، فإذا ارتبط الإعلان فى ذهن المشاهد بهذه الذكريات الصادقة التى تبعث فيه السرور . فإنه عن طريق هذا الترابط اللاشعورى مع اسم السيارة وماركتها . يمكن أن يكون هذا سبباً من أسباب زيادة الدوافع لدى الشخص لاقتناء هذه السيارة . شكل (٨) .

المنظر الثامن : يمثل صورة لطريق زراعى . حيث نشاهد إشارة المرور مرسوماً عليها غزال . وهو تحذير للسائقين من السرعة فى هذا المكان . لأنه يحتمل أن تمر حيوانات من الجانب الآخر . ويظهر ظل راكبى الدراجات فى الجزء الأمامى من الصورة . بينما يتضح من الحيوانات العابرة : فيل . وديناصور . ووحيد القرن . وهذه الصورة عبارة عن حلم . قد صورها الفنان السويسرى الحديث « إيرهار جاكوبى »[١] والصورة ، فى الواقع ، تمثل ما نسميه : « اللامنطقية » وتحمل الدلائل التى تلوح عادة فى الأحلام فى صور غير مرتبطة . شكل (٦) .

المنظر التاسع : يظهر من هذا الإعلان . التأثير الذى يتعرض له الإنسان فى وقتنا الحاضر . نتيجة للدعاية السياسية . والرسم يبين إعلاناً فرنسياً ظهر عام ١٩٦٢ ، يدعو الناخب بأن يدلى (بنعم) فى أسفل الانتخابات . (ولا) متكررة . ففى الوقت الذى يدعونا الإعلان للاستجابة الإيجابية . يدعونا فيه غيره إلى الاستجابة السلبية ، ومن شأن هذا أن يخلق جواً لا يتلاءم مع نفسه . وعدم الاتزان النفسى يكون النتيجة

(١) Erhard Gacoby

الحتمية لمثل هذا التضارب . والذى نحاول لاشعوريًّا . أن نقوم بعمليات تعويضية عنه. لنكتسب عملية الاتزان النفسى . شكل (٩) .

المنظر العاشر : ويظهر فى الصورة العليا منظر من القصة المشهورة : « أليس فى بلاد العجائب » عام ١٨٧٧ . وتبدو فيه أليس وقد كبرت إلى أكبر حد ممكن لتشغل فراغ المنزل . وهى فكرة حلم من النوع التعويضى الذى يمنينا بكبر الحجم . بحيث نكتسب قوة أكبر لتحقيق أحلامنا . وهذا النوع من الأحلام . يساور دائماً طفولتنا . وقد استغل فى القصة أحسن استغلال . ليفصح عن نوع من الرمزية فى تحقيق هذا الأمل الذى يساور الطفولة . حينما تحس بضعفها إزاء العالم الخارجى . شكل (١٠) .

والرسم السفلى يبين حلماً آخر من النوع الشائع أيضاً . والذى يبدو فيه الإنسان وهو يطير . وهى صورة من القرن التاسع عشر . صورها الفنان الإنجليزى « وليم بليك[1] » وعنوانها : « كيف حلمت بالأشياء المستحيلة ؟ » . وفى هذه الصورة نرى المرأة وهى تتأبط ذراع الرجل الذى يقود الحصان الطائر فى الفضاء . بينما الخيالات التى تصعد من أسفل وتلوح فى أعلى السحب . تظل عليها — هل ذلك هو الخيال الذى عاود الإنسان مرات فى حياته ليفك قيوده الأرضية[2] . ويطير أشبه بالحمامة حرًّا فى السماء . يحقق آماله ودوافعه ؟. شكل (١٢) .

(١) William Blake (٢) المرجع السابق ص ٣٩ .

حقيقة الرمزية : ويبدو من استطلاع هذه الأمثلة العديدة ، أن الرمزية ضرورة للإفصاح عن الأفكار المقلقة ، التى لاتجد سبيلها إلى التحقيق فى الحياة العادية . وحينما ينتج الفنان أو المعبر . فإنه يكسبها تلك الرمزية التى تعتبر مفتاحاً للكشف عن ذلك الشئ الذى يقلقه . ولعل الأفراد لايقلون عن الشعوب فى اهتماماتهم الرمزية . فمنذ أيام كتبت الصحف عن مظاهرة للطلبة الأمريكيين وقدجسدوا فيها صورة لنيكسون كدمية ، وهم فى الواقع ، إذ يجسدونها فى أثناء تجمعهم . وحين يحتجون فيها على الحرب الكمبودية ، والحرب الفيتنامية ، إنما يحاولون بذلك تصوير الاتجاه المضاد لثورتهم . باعتبار أن الرئيس ومن حوله هم الذين اتخذوا القرار فى الهجوم ضد الثوار فى دولة كمبوديا . والتصوير بالدمية مقترن بالحافز الذى تسعى إليه جماعات الطلبة ، حيث لايستطيعون الأصل فيستخدمون الدمية كبديل .

ولعلنا نذكر « تشرشل » أثناء الحرب العالمية الثانية ، حينما كان يطوف فى معسكرات الجنود ، وكان يلوح بيده رادًّا التحية ، رافعاً أصبعيه على شكل حرف « V » ، وهو الحرف الأول من لفظ النصر (١) . وأصبح هذا الرمز مقترناً بالصراع الحادث فى الحرب بين قوى الحلفاء ، وقوى المحور . أما بالنسبة للمحور ، فقد كان الصليب المعكوف الذى ارتبط بالنازية ، العلامة الواضحة لكل الأفكار التى حاول هتلر أن يبرزها كنوع من التحدى للعالم ، ومنها : « ألمانيا فوق الجميع » . كما أن رفع الذراع لتحية الزعيم ، كان أيضاً أحد الدلائل لتجسيد الطاعة العسكرية للزعيم هتلر .

---

(١) Victory

الرمزية من ناحية الشكل : وقد سبق فى مجال آخر . أن فرقنا بين ما أسميناه الرمز . والعلامة . والرمز الفنى ، كما أوضحنا فى هذا المجال نوع الصلة بين الرمزية . والأحلام[١] . وبيّنا فى مجال آخر معنى الرمزية كما تتضح فى رسوم الأطفال[٢] . وفى هذا المجال لا نريد أن نكرر ما سبق ذكره . وإنما نود أن نتناول الموضوع من زاوية أخرى . وهى : كيف تأخذ الرموز أشكالها ؟

من الطبيعى أن الرمز الذى سيستخدمه شخص معين فى التعبير . لابدّ وأن يكون له معنى خاص لديه . وليس هناك حدود لما يمكن أن يظهر عليه شكل هذا الرمز . فمن اليسير حينما نتعامل مع شخص . حسب طوال الوقت أنه عنيف ، معقد فى تصرفاته . لايسهل الوصول معه إلى تفاهم ودى . وأن قراراته يكون دائماً مبعثها الصرامة والنظام المظهرى . وقد تتحول صورة هذا الشخص لتصبح رمزاً ينم عن هذا المعنى . ويمكن استخدامه بهذه الصورة . وفى محاولات لبعض الفنانين . وخاصة الحديثين مثل ريفييرا[٣] . كان يريد أن يرمز للرأسمالية بمعناها المستغل ، المضاد للرفاهية العامة للرجل الشعبى . فكان يحارف إيجاد الرمز حتى وجد أن أفضل شىء أن يصور شخصية أمريكية مشهورة بثرائها . وكان ينقلها نقلا حرفيًّا فى صوره الحائطية الكبيرة . ليبينها كرمز للثراء الذى

---

(١) أسس التربية الفنية .

(٢) سيكلوجية رسوم الأطفال .

(٣) D. Reviera

يحاول أن يشرح أضراره من الناحية الاشتراكية . ولذلك فقد يصبح الشخص بصورته الطبيعية أو الفوتوغرافية لبعض الناس . رمزاً لمجموعة من الأفكار . سواء أكانت أفكاراً من النوع المحبب أو المكروه . وهو معنى إضافى يدرك فى ذاتية الشخص نفسه الذى يسجل .

وهناك أيضاً دلالات أخرى للرموز التى تصل إلى علامات بسيطة مجردة . لتنم عن أفكار جديدة . فمثلا فكرة الصليب . إنه مجرد خطين أحدهما رأسى والآخر أفقى . والخطان متقاطعان . ولكن ظهورهما فى أى رسم . أو فى أى مجال مجسم . يثير دلالات كثيرة . ومعانى عديدة . لهذا لا يمكن أن نتصور هذين الخطين علامة عابرة . بل إن الرمزية التى يحملها الصليب مرتبطة بصلب المسيح ، ومرتبطة بتمثل عملية الإصرار على العقيدة والدفاع عنها . حتى لو فقد الإنسان روحه . لهذا أصبح الصليب يرتبط بالهداية . والمثل الأعلى . والتضحية . واستغله الفنانون لإقامة الكنيسة على دعامة من هيكله . فأول بازيلكا كانت على شكل صليب . وكل مقابر المسيحيين يعلوها الصليب . كما يعلو الكنائس . كما أصبح رمزاً يدلى فى سلسلة حول رقبة من يؤمن بالمسيحية . ويتمثل فى السيد المسيح ، المثل الأعلى للتضحية والفداء .

وقد امتلأ تاريخ الفن فى العصور : القديمة ، والوسطى . بأنواع عديدة من الرموز . حتى أصبح من الضرورى إدراك المغزى من كل رمز ، لتفهم تلك الأعمال الفنية ، فاستخدمت الحمامة رمزاً للسلام ، كما رُسِمَ الكبش ليئم عن الفداء ، ومرجعه قصة إبراهيم وابنه إسماعيل حينما افتداه بذبح هذا الكبش ، فأصبح الكبش رمزاً للفداء . كما

يستخدم الصقر رمزاً للرفعة . وقد تداوله الفنانون حتى ولو أن بعضهم لم يره. كذلك ظهر وجه الأسد ليرمز إلى القوة . والثعبان إلى الغدر أحياناً . وفى أحيان أخرى ، وخاصة مع صانعى الأدوية ، يستخدم على أنه رمز لتحويل السم إلى « ترياق » . ولاشك أن تمثيل المياه بخطوط متعرجة . يرمز إلى الأمواج أحياناً . وفى أحيان أخرى يرسم الماء رمزاً للتعميد بالنسبة للمسيحية . وترسم السمكة رمزاً للخير . وكان المصريون القدماء يجمعون وجوه الحيوانات والطيور فوق أجساد آدمية . لتعبر عن فكرة الآلهة . وفى الفنون الشعبية تظهر رسوم كثير من الرموز لتوضح العقائد المرتبطة بالحسد . فاستخدم الكف على أساس فكرة « خمسة وخميسة » واستخدمت العين للتعبير عن : « عين الحسود فيها عود » . كما استخدم الفنان الشعبى الجمل للتعبير عن العودة من الحج . وغصن الزيتون إشارة للسلام . وفى الحقيقة إن الرموز التى يستخدمها الفنانون لاحصر لها . بعضها مر فى تاريخ طويل . واكتسب معانى تقليدية . والبعض الآخر توالد مع الأحداث . وأخذ معانى جديدة .

وفى الحقيقة أن الرموز التى نشاهدها تمثل صراع الإنسان فى الحياة ، كما تعكس عقيدته وطموحه . وجوانب آماله فى الانتصار والسيطرة ، وتحقيق الحب . ولا يسهل عادة جمع كل هذه الرموز فى مثل هذا المقام ، لأن البعض منها يقوم على قصص ميثولوجية . كان يدين بها الإنسان فى تلك العصور التى صورها فيها .

وما يهمنا فى هذا المقام ، أن الطفل . والفنان الحديث . كالأديب والشاعر ، حينما يعبر تعبيراً له دلالات رمزية . فيتبع من ناحية الشكل

عمليات التحريف المختلفة . أحياناً يلخص ويجرد حتى يصل إلى علامة يشاع تداولها . وتصبح رمزاً للفكرة، كما ظهر فى عهد إخناتون رسم دائرة تمثل قرص الشمس . يتدلى منها خطوط فى نهايتها أيد لتعطى الفكرة عن الخير الذى تيسره الشمس ، وهى أيضاً رمز لعبادة الشمس فى هذا الوقت . والطفل والبالغ . على حد سواء ، يصغّر . ويكبّر ، ويحذف . ويطيل ، ويضخم . كل ذلك لإعطاء الدلالات الرمزية لمعنى معين . وحينما يكون الرسم رمزيًا . لايخضع فى العادة للمسرح الواقعى . إذ أن له مغزى آخر . فالتعبير الرمزى يعتمد على الرموز ذاتها ، وعلى الأوضاع التى تأخذها هذه الرموز بالنسبة لبعضها البعض . بصرف النظر عن النظرة الموضوعية أو الفوتوغرافية للتعبير . فالرسوم قد تظهر ويتعدد منطق تجميعها فى وحدة . وقد ترسم بعضها وقاعدتها صفحة الورق ، ويرسم البعض الآخر وقاعدته الحافة العليا للورق . وهكذا تتعدد مداخل الرسم بصرف النظر عن وضعها فى الطبيعة . وحينما نراها مجمعة بهذا الشكل ، ننظر إليها كرموز . ونقدرها كأشكال رمزية لها معان ، ودلالات ، وخصائص معينة ، أكثر من مجرد أنها تصوير لواقع خارجى ، هى دلالات لكل المعانى الرمزية المتضمنة فيها . وعلينا أن نجول بخواطرنا لنفك هذه الرموز . ونفهم ما يرتبط بها من معان .

والحقيقة أن الفن يزداد ثراء بما يحتويه من رموز ، وكلما كان لهذه الرموز صدًى فى اللاشعور ، كان هذا داعياً لظهورها عند تصويرها وهى تحمل معانى تعبيرية قوية ، ولكن حينما تقل هذه المعانى ،

تصبح علامات لاتحمل مغزًى من الخبرة . وبالتالى تكون سطحية .

الرمزية من ناحية المغزى: وتزداد المعانى المرتبطة بالرمزية غنىً ، كلما تكشفنا العلاقة بين الرمز والمغزى . صحيح أن العلاقات التشكيلية هى عادةً التى تخلق المعنى الجمالى . لكن الرمز فى ذاته الذى يُرسم أو يعبَّر عنه . له مغزًى إضافى . فوق أنه شكل جميل . وهذا المغزى الإضافى نأخذه من المفاهيم المشتركة عند الناس ، تلك التى ترتبط بعقائدهم الدينية . أو السياسية . أو الاجتماعية . والناس لكى تسيطر بعقائدها على البيئة وتمنع الشر . فهى فى الحقيقة تستغل الفنان ليخلق لها الرموز التى تبعد هذا الشر عنها . وبناءً على ذلك يعتبر الفنان أداة اجتماعية لتجسيد الرموز التى تفصح عن المعانى الاجتماعية التى يدين بها المجتمع . فلايكفى أن يُرسم الكف كمجرد شكل ليد دائماً . لابد فى تأمل الأصابع وإبراز اليد بما يمكن أن تعكس معنى أنها تمنع نظرة العين التى تجلب الشر ، أو العين الحاسدة . لذلك فلا تكون اليد فى هذه الحالة مجرد علامة . وإنما تُقرن بالشكل الذى يحمل هذا المضمون . وبعض الرموز تعطى راحة نفسية لصاحبها . إذ أنه وهو يؤمن بأن هناك شروراً . وكيلا يشغل نفسه بها . نجده يتسلح بالرموز التى تقوم بالنيابة عنه فى منع هذه الشرور . كذلك فإنه يستريح نفسيًا ويستطيع مجابهة الحياة بقدم راسخة .

إن البحارة الذين كانوا يركبون المراكب الشراعية . ويخرجون بفوانيس ضئيلة وسط ظلام الليل فى البحار الشاسعة ليصطادوا . لابد أن يكون خيالهم قد مسه شىء من الخوف . نتيجة هذا العالم الموهوم . والظلام ،

وهياج البحر . والعواصف . وفكرة أن الذاهب مفقود ، والعائد مولود ، هذه الفكرة مرتبطة بتصورهم لجنية البحر التى رسموها ، نصفها أنثى آدمية وذيلها سمكة . وفى الميثولوجيا . هذه الجنية استطاعت أن تأخذ أحد البحارة وتجبره على العيش معها فى قاع البحر . إن هذه الجنية لم تصوَّر على شكل طبيعى ، فنصفها الأنثى هى كل ما يتمناه البحار ، وهو بحار ذكر . فى عزلته يلاطم الموج . والظلام . وغموض الكون ، فصور أمله فى هذا الرمز الأنثى . ولكن أين الأنثى فى وسط البحار ؟ فهى لابد خارجة من البحر . كما ولا بد أن يكون نصفها سمكة . فالمعنى الرمزى يتحقق بالنسبة للبحارة الذين يعيشون فى مثل هذا الجو .

إن بعض البحارة حتى يومنا هذا . ما زالوا يرسمون هذه الجنية . ولكن فى الحقيقة . لم يعد لها دلالة كالتى كانت لها بعد أن أصبحت المراكب بواخر ضخمة تستخدم العقول الالكترونية لتقتفى أثر السمك بالأساليب العلمية . فالفكرة الميثولوجية المرتبطة بجنية البحر . ظهرت فى جو له طابع بدائى كله غموض . لهذا يتجه الخيال إلى نوع من الإيهام الشكلى . كما يرى فى مثل ذلك الرمز .

وليس معنى ذلك أن تطور الإنسان جعله يستغنى عن الرمزية . صحيح أن بعض الرموز قد فقدت معناها بالنسبة لجيلنا الحاضر ، لكن مازالت الفكرة الرمزية تأخذ شكلا جديداً . ومضموناً مغايراً . بالنسبة للمواطن الذى يعيش فى القرن العشرين . ويبدو ذلك بوضوح فى لعب الأطفال . فقد ظهرت فى أسواق نيويورك . وعقب نزول أول إنسان على سطح القمر ، ألعاب جديدة للأطفال تدور حول رواد الفضاء .

وحول القمر والأفلاك . ولعل هذا يدل على أن الدلالات الرمزية فى اللعب . تستمد معينها من الجو الثقافى والحضارى المحيط بالطفل . وكلما تقدم الإنسان . اضطر بالضرورة أن يغير فى رموزه التى يؤمن بها ويضمنها معانيه . ويستبدلها برموز أخرى تكون أكثر إفصاحاً عن حياته الحقيقية .

نزعات الفن الحديث والرمزية : ولعل المتتبع لتيارات الفن الحديث . وخاصة فى فن العامة[١] . والسريالية . ليجد استخدامات جديدة للرموز وليدة الحياة الحديثة التى يعيشها كل فرد . بما فيها من إعلانات . وآلات . وإنتاج بالجملة لايظهر فيه الفرد إلا وكأنه ترس فى آلة . أو وحدة متكررة فى نظام متشابه . فإذا كان الفن وليد الحياة وانعكاساً لها . بل هو الحياة ذاتها . فإن تلك الرموز التى ظهرت فى فن العامة . إنما هى دليل مفصح عن عقلية المواطن العادى[٢] الذى يأكل فى أمريكا السجق[٣] والمسترددة . ويذهب إلى السوق[٤] ليقتنى المعلبات التى يجدفيها كل ما يشتهيه ليضعه فى الثلاجة . ويكفى غذاؤه لشهور دون أن يحتاج إلى الخروج وسط الثلج ليبحث عن خضار . أو فاكهة . أو لحم ، فكلها معلّبة لتحقق حاجته . شكل (١١) .

وعلى ذلك ، فإن فن العامة يستمد وحيه من هذا النوع من الحياة .

---

(١) pop art (٢) the common man

(٣) hot dogs (٤) super market

فيأخذ : الإعلان . وصور الخنافس . والمعلّبات . وأشكال السيارات ، ومفاتيح وأزرار الكهرباء . وقرص التليفون . وأشكال العقول الالكترونية ، ليجعل من كل ذلك نوع الرمزية الذى يثرى به تعبيره .

الرمزية كتعبير فردى وجماعى : والرمزية قد تكون لها أهمية فردية حينما ندرس خصائص الفرد ، ونهتم بها كوحدة فى حد ذاتها ، لها تاريخها ومقوماتها النفسية . لكن الحياة الحديثة ، التى تتجه بكل مقوماتها إلى إخضاع الفرد لمظهر عام متكرر ، شأنه فى ذلك شأن بقية أفراد المجتمع . فإن الدلائل الرمزية الفردية تقل فى معناها لتفسح المجال للرمزية الجماعية . إذ أن نوع الإنسان الذى يعيش وسط عالم من الآلات يعانى من نفس المشكلات . ونوع الاستجابات . وعلى ذلك فإن الرمزية التى تعتلى حياته . وأفكاره . وعقائده . إنما هى رمزية جماعية .

ويدور السؤال فى أذهاننا : إن هذا العصر الذى يؤمن بالفرد ، أليس من المتوقع أن نجد فيه تزايداً فى الفروق الفردية . وما يتبعها من رموز ؟ الحقيقة أن ذلك وإن كان يبدو منطقيًّا من الناحية النظرية ، إلا أنه فى واقع الأمر مع سيطرة الآلة وتأثيرها فى الحياة الاقتصادية . وفى الحروب الحديثة ، يصبح هذا الفرد . على غير ما نتصوره ، وحدة خاضعة لسيطرة الدولة . وللإمكانيات التى تيسرها له . سواء فى ملبسه . أو مسكنه . أو تعليمه . وتستطيع أن تفرض عليه بكل إمكانياتها الاقتصادية . ما يجعل نموه يسير فى اتجاه معين دون الآخر . وعلى ذلك فإن الأفراد ، وإن اختلفوا فيما بينهم . إلا أن مقوماتهم النهائية

وليدة عوامل خارجية أكثر ضغطاً . وتكيفاً . وإلزاماً . من تلك العوامل الداخلية التى تسبب الفروق الفردية . وحتى فى أغنى الدول . مثل أمريكا ، نكاد نلمح الشكل النمطى لحياة الفرد فى البيت الذى يسكن فيه وإمكانياته الميكانيكية . والسيارة التى يركبها ، ومصانعها وأسواقها المتنافسة ، والتى لها دور كبير فى تكييف الحياة فى هذه البلاد . فالمواطن الأمريكى فى سلوكه . يعكس مفعول هذه البيئة كلها . ويصبح أى نوع من الرمزية يلتزم به وليد التفاعلات التى يعيش فى خضمها . بينما فى البيئات الريفية الساذجة التى لم تصل إليها أدوات الصناعة الثقيلة . مازلنا نجد للخرافة البدائية مكاناً كبيراً ينعكس فى الرمزية التى تجد لها صدى ، حتى فى عمليات الوشم التى تكوى بها الجلود منذ الصغر لتصبح رموزاً تنم عن العقيدة التى يولد الفرد فى طياتها . ويحملها فوق جلده . فالعصفور الذى يضعه الفلاح أو الصيدى . بالوشم . فوق جبهته . ما دلالته ؟ هل يمثل غرس سمات الذكاء على جبينه ليقال إنه « يفهمها وهى طائرة » ؟ إنه مَثَل من تلك الأمثلة التى نقابلها فى الشعوب البدائية . والتى تجعل للرموز دلائل ومعانى مستفيضة تحتاج إلى دراسات أكثر اتساعاً .

وخلاصة القول : أن هناك نوعين من الرمزية : فردية . وجماعية ، ينعكسان فى الفنون على اختلاف أشكالها وألوانها . ويعطيان معانى إضافية تكشف عن الجوانب النفسية التى تزيد من ثراء الإدراك حينما نقترب من تلك الأعمال لفهمها من هذه الزاوية النفسية الجديدة .